سورية:
أزمة تخطت الحدود

أفق أولوتاش، كيليتش بوغرا كانات، جان أجون

ملخص

انطلقت الأحداث في سوريا من مدينة درعا المجاورة للحدود الأردنية في شهر آذار من عام 2011 على شكل مظاهرات احتجاجية، ثمّ انتشرت بعد أن واجهتها قوات الأمن بشكل قاس ومميت. وقد أدّى إغلاق النظام طرق الحوار السياسي إلى بدء المعارك وتصاعدها. وأدّت هذه المعارك المستمرة منذ أربع سنوات إلى خسائر كبيرة وأضرار كثيرة في معظم أرجاء سورية.

ولم يمض وقت طويل حتى بدأت دول العالم بالتدخل في سورية، وعلى رأسها إيران وقد أسهمت هذه الدول في تغيير مسار المعارك والأزمة بشكل عام. ومع مرور الوقت أصبحت الأراضي السورية مسرحًا لصراعات القوى العالمية والإقليمية بالوكالة. وقد أدّى هذا الوضع إلى تعدد بنية القوى الفاعلة في المنطقة، وإلى تقييد شبكة العلاقات تمامًا. إن مقالنا هذا يهدف إلى دراسة وضع الأزمة السورية في الوقت الحالي الذي وصلنا إليه، مع التركيز بشكل أكبر على الناحية العسكرية. إن الوضع العسكري الموجود على الساحة حاليًّا يمتلك أهمية كبيرة للوصول إلى الحل السياسي، ويتغير بشكل يومي، حيث تتغير هويات القوى المسيطرة على المناطق، وتظهر اتفاقيات جديدة على الساحة.

ولأن الأزمة السورية تخطت الحدود السورية، فقد اكتسبت المواقف الدولية من الأزمة والمحاور التي تقع ضمنها القوى العالمية أهمية كبيرة. وفي النهاية فإن المسألة السورية خرجت منذ مدة طويلة جدًّا من أن تكون أزمة يمكن حلها من طرف فردي. ولهذا فإن فهمنا لمواقف القوى العالمية والمحاور التي تشكلها هذه القوى العالمية والصراعات الموجودة بينها سيكون مهمًّا جدًّا.

رؤية تركية
2015 - 13
71 - 59

1 - المدخل

قوبلت المظاهرات التي بدأت في سورية احتجاجًا على الأوضاع في عام 2011 والتي تأثرت بالربيع العربي بقساوة شديدة من النظام، وقد أدى الخيار العسكري الذي تبناه النظام السوري في مواجهة المطالب التي نادى بها المتظاهرون إلى جرّ الوضع إلى حالة من الفوضى الكبيرة. وإن عدم قدرة المتظاهرين السلميين على تحصيل أي من مطالبهم بالوسائل السلمية، وزيادة الخسائر في الأرواح نتيجة قسوة النظام في التعامل مع تلك المظاهرات السلمية- أديا إلى حراك مسلح من قبل الشعب الذي لم يجد خيارًا بديلًا. ومع تقدم الوقت في هذه المرحلة قام عدد من الجنود الذين ينتسبون إلى جيش الأسد بترك مهماتهم، والهروب مع أسلحتهم؛ احتجاجًا وردًّا على التصرفات والأفعال التي واجه بها النظام الشعب، وانضموا إلى صفوف المعارضة، وبعد مرور فترة وجيزة أسسوا نواة للمعارضة المسلحة التي سميت آنذاك بالجيش السوري الحر. تحولت المعارك بعد ذلك بفترة قصيرة جدًّا إلى حرب واسعة النطاق في أرجاء واسعة من سورية. وقد لقيت أجزاء واسعة من سورية أضرارًا كبيرة نتيجة الحرب التي لاتزال مستمرة منذ أكثر من أربع سنوات إلى الآن. ظهرت قوى جديدة على الساحة خلال مرحلة الحرب الداخلية هذه، وقد تعرضت هذه القوى إلى تغيرات كبيرة جدًّا ضمن التأثيرات الموجودة على الساحة. في حين كانت الأراضي السورية تتحول إلى قاعدة حرب بالوكالة بين القوى العالمية والإقليمية. وقد أدى هذا الوضع إلى تعدد بنى القوى الموجودة على الأرض وزاد من تعقيد شبكة علاقاتها.

و بعد مرور أربع سنوات على الأزمة السورية وتدخل قوى إقليمية وعالمية متعددة، لا يمكن الحديث عن إمكانية تفوق طرف على آخر. وفي حين بقيت المحاولات الساعية لإيجاد حل سياسي –ومنها اجتماعات جنيف– دونما أي جدوى، فقد اقتنع العديد من القوى الإقليمية والعالمية بأنه لا يوجد حل سياسي إلا بتغيير في الوضع العسكري على الساحة. وحيث إن هذا الوضع يدفع كلًّا من النظام السوري والمحاربين معه والمعارضة السورية المسلحة إلى المقدمة، فقد أصبحت المعارضة السياسية في المؤخرة دائمًا.

تهدف هذه المقالة المعنونة بـ"سورية: الأزمة التي تخطت الحدود" إلى دراسة البعد العسكري في الأزمة السورية، وتحليل المواقف الدولية حيال ما يتعلق بالأزمة السورية. سنقوم في هذا البحث بتقييم الوضع العسكري على الأرض قدر المستطاع؛ لصعوبة متابعته وتحليله، ودراسة مواقف القوى العالمية فيما يتعلق بالأزمة السورية، وتقييم التحالفات التي دخلتها القوى العالمية والإقليمية في الصراع السوري.

2 - الوضع الحالي في سورية: حرب الاستنزاف

لم يشكّل الجيش السوري الحر الذي تكوّن في بداية الأزمة على أنه ممثل عن المعارضة السورية– نواة متجانسة يمكن السيطرة عليها، ونتيجة لذلك ظهرت مجموعات منفصلة عن بعضها بشكل كبير ضمن الجيش السوري الحر. ومع ازدياد عدوان الأسد على المواطنين المدنيين مالت القوى العسكرية للمعارضة إلى تيارات ذات مظهر راديكالي. وبقدوم عناصر شيعية أجنبية للحرب إلى جانب الأسد، بالإضافة إلى دعم روسيا وإيران له بدأت العوامل التي تجمّد الوضع بالظهور بشكل واضح.

لم يشكّل الجيش السوري الحر الذي تكوّن في بداية الأزمة على أنه ممثل عن المعارضة السورية- نواة متجانسة يمكن السيطرة عليها، ونتيجة لذلك ظهرت مجموعات منفصلة عن بعضها بشكل كبير ضمن الجيش السوري الحر

و بعد مرور فترة قصيرة ضمن هذه المرحلة بدأ المحاربون الأجانب الذين انضموا للحرب إلى جانب المعارضة والفرق الجهادية يكتسبون تأثيرًا واضحًا على الأرض. والآن تبدو المعارضة السورية بشكل مختلف كثيرًا عن أول شكل ظهرت فيه، ولاسيما بعد مرور الحرب الداخلية بمنعطفات دراماتيكية جدية. أُسِّس عدد من التحالفات الجديدة في مرحلة الحرب، وظهرت مجموعات جديدة وكبرت، في حين ذاب واختفى الكثير من المجموعات التي كانت ذات تأثير كبير في البداية. إن النقطة الأكثر لفتًا للانتباه هنا هي بدء المجموعات الجهادية بتحييد المجموعات المنتمية للمعارضة السورية بصورة الدومينو، وبشكل متزايد ومستمر. ولاسيما أن ظهور تنظيم داعش ونموه السريع كان لهما دور حساس في تحول المعارضة السورية. وقد استطاع تنظيم داعش بعد الحرب التي فتحها على المعارضة السورية المسلحة بشكل عام في الشهر الأول من عام 2014– أن يسيطر على معظم أرجاء الشرق السوري، بما في

ذلك الرقة ودير الزور. وفي مقابل ذلك نرى مجموعات أكثر اندماجًا عقديًّا وأيديولوجيًّا وسيطرةً وتنظيمًا بين المعارضة السورية المسلحة، مثل الجبهة الإسلامية وجبهة النصرة التي تظهر في المقدمة أكثر فأكثر. إن عدم الوفاء بأي من الوعود التي قطعها العالم للشعب السوري طوال هذه المرحلة، والسماح للأسد بجلب حزب الله والقوات الإيرانية للحرب ضد المعارضة السورية، وتخفيض الأزمة إلى مستوى مذهبي- كلّ ذلك أدى إلى ظهور العناصر الجهادية وتناميها بشكل كبير. وأدى هذا الوضع إلى ميل الشعب السني السوري إلى المجموعات الجهادية في الأزمة التي اتخذت طابعًا مذهبيًّا مع مرور الوقت؛ هذا الشعب الذي أحسّ بتخلي العالم بأسره عنه.

والآن نرى أن المعارضة السورية تواجه تحديات مختلفة على الصعيد العسكري، وأنها تعمل على المقاومة من أجل إثبات الوجود. فهي لم تبد أي تحرك أو فعالية في المنطقة الشرقية من سورية منذ قرابة سنة، ولاسيّما بعد ظهور تنظيم داعش وبدء عملياته في الشهر الأول من سنة 2014 بمحاربة مجموعات المعارضة السورية في الشرق، وإجبارهم على الخروج من المنطقة الشرقية. وفي المستوى نفسه نجح الأسد بالتمركز في مواجهة المعارضة، واستطاع التقدم في مناطق حمص وحلب والقلمون، ومركز دمشق ضد المعارضة. كما أن المعارضة بدأت تواجه مصاعب جدية أمام النظام السوري بسبب المعارك التي شهدتها مع داعش.

زادت الصراعات بين قوى المعارضة خلال سنة 2014، وأسست تشكيلات ائتلافية جديدة. وأهم هذه التشكيلات كانت الجبهة الشامية التي أعلنت في دمشق وكان مركزها في حلب بتاريخ 25 كانون الأول 2014. وعلى الرغم من كون هذا الائتلاف واسعًا جدًّا إلا أنه يحتوي في داخله على مجموعات مختلفة عن بعضها، ولم تشكل حتى الآن تجانسًا تامًّا. إن هذه المجموعات تتشكل من بقايا انحلال كل من الجبهة الإسلامية (جناح حلب)، وجيش المجاهدين، ومجموعة نور الدين زنكي، وألوية فاستقم كما أمرت، وجبهة الأصالة والتنمية، وحركة حزم. وقد عيّن قائد لواء التوحيد عبد العزيز سلامة -وهو لواء ضمن الجبهة الإسلامية- قائدًا على الجبهة الشامية. وقامت المجموعة بهجمات عسكرية متعددة، وخاصة على جبهة حلب من خلال الأنفاق والغرف العسكرية التي أنشأتها، وشنت هجمات متعددة ضد النظام. وبتاريخ 5 شباط 2015 عقدت اتفاقًا مع YPG في منطقة عفرين شمال حلب، واتخذت هذه المجموعات قرارًا بإنشاء نظام عدلي مشترك، حيث توافقت على تأسيس محكمة شرعية مشتركة. وبحسب هذه الاتفاقية قرر الطرفان العمل ضد النظام السوري عسكريًّا

زادت الصراعات بين قوى المعارضة خلال سنة 2014، وأسست تشكيلات ائتلافية جديدة. وأهم هذه التشكيلات كانت الجبهة الشامية التي أعلنت في دمشق وكان مركزها في حلب

ولوجستيًّا. تهدف الجبهة الشامية إلى تشكيل سقف واحد للمعارضة السورية يشمل مناطق واسعة من سورية وعلى رأسها حلب. وتحمل الجبهة الشامية في هذا المعنى توافقًا أو توازيًا مع أهداف الجبهة الإسلامية. وفي مقابل ذلك نرى أن ناحية التركيز على المنهج الإسلامي يبدو بشكل أقل هنا.

كما زاد معدل المعارك بين جبهة النصرة وحلفائها، وبين المجموعات ذات المظهر العلماني التي تلقى الدعم من الولايات المتحدة، إذ أخرجت الجبهة جمال معروف قائد جبهة ثوار سوريا من دير سنبل التي كان يتحصّن فيها، وسيطرت على مركزه الرئيس وأسلحته كافة. وزادت حدة سير المعارك الطفيفة بين هذه المجموعات في بداية عام 2015، حيث شهدت الساحة توترًا حادًّا بين جبهة النصرة وحركة حزم، حيث اتهمت جبهة النصرة حركة حزم بخطف عناصرها.

أرادت جبهة النصرة إثر الأحداث مهاجمة حركة حزم، لكن حركة حزم قررت انضمامها للجبهة الشامية ردًّا على نوايا جبهة النصرة في الهجوم، إلا أن هذه العملية لم تخفف أو تنهي التوتر بين حركة حزم وجبهة النصرة التي هاجمت بدورها اللواء 46 مركز حركة حزم في حلب وسيطرت عليه. أدى ذلك إلى تشتت حركة حزم، وإعلانها حل نفسها في الأول من آذار عام 2015. وانضم ما تبقى من عناصرها إلى الجبهة الشامية. استمرت المعارك ضد نظام الأسد في الجبهات الشمالية من سوريا بالتزامن مع استمرار الصراعات بين مجموعات المعارضة وتشكيل تحالفات جديدة. وقد حقق نظام الأسد تقدّمًا على الجبهات في حلب، وكانت نواياه متجهة إلى حصار حلب بالكامل؛ لكن هجوم المعارضة القوي أدى إلى تراجعه وانسحابه من مناطق كثيرة، وتكبّده خسائر فادحة. بالإضافة إلى الهجمات الأمريكية على داعش التي أدت إلى ضعف تأثير التنظيم، وتحقيق الثوار تقدّمًا على الجبهات المتعددة وخاصة في حلب. إلى جانب هذه الأحداث قامت قوى المعارضة السورية بشن هجمات كبيرة جدًّا على معسكرات ومراكز ضخمة لنظام الأسد، كوادي الضيف والحميدية في إدلب، وقطعت ارتباط النظام بحماة بنسبة كبيرة جدًّا. نجحت قوات المعارضة السورية بإيقاف تقدم قوات الأسد على طول حدود حماة الشمالية، إلا أنها في اللاذقية أُجبِرت على الانسحاب من بلدة كسب التي سَيطرت عليها قبل عدة أشهر نتيجة للهجمات الكبيرة التي تعرضت لها آنذاك.

تعرضت قوى المعارضة لهجمات كبيرة في الغوطة الشرقية في دمشق، وخسرت مواقع محددة في القلمون، واستمرت في البقاء في المناطق التي تركتها في العام الماضي في الوعر والرستن بحمص. في مقابل ذلك كانت كبرى هجمات المعارضة قوة في القنيطرة ودرعا، حيث سيطرت قوات المعارضة على عدد من النقاط الإستراتيجية في المنطقة. وقد لوحظت معاناة النظام مصاعبَ كبيرة في هذه المنطقة إثر هجمات المعارضة، وحاول تغطية هذه الخسائر من خلال الاستعانة بالقوات الشيعية التي أتت من خارج سورية. وقد بدأ بعض المحللين الإستراتيجيين يرون أنه في حال استمرار المعارضة بالتقدم في الجبهة الجنوبية ستتمكن من السيطرة على

درعا بالكامل، وسيكون من الممكن حينئذ الحديث عن تقدمهم تجاه العاصمة دمشق.

وإننا نلاحظ الآن أن المعارضة السورية بدأت تتكتل حول المجموعات التي تفرض نفسها بشكل أقوى في الساحة. وإننا نرى الجيش السوري الحر الذي بدأ متشتتًا غير متجانس أصبح الآن أكثر فاعلية وتنظيمًا وتوحدًا وتأثيرًا.

إن الجبهة الإسلامية وجبهة النصرة تترأسان الآن المعارضة السورية. ومن المنتظر أن تزيد وتتوسع مكانة هاتين القوتين بين المعارضين، إذا استمر سير الأحداث كما هو الآن. ونرى أن الصبغة الطائفية التي اتخذتها الحرب السورية والتخاذل الأممي واللامبالاة العالمية بدأت تجبر المعارضين للنظام السوري على أن ينضموا للمجموعات الجهادية في سوريا بشكل أكبر. حتى أخذ عناصر من الجيش السوري الحر ينظرون إلى المتعاونين مع الغرب في هذه المرحلة نظرة استصغار، بل أخرجوهم من مواقعهم في الكثير من الأوقات.

وإذا قمنا بتنحية داعش التي اتخذت لنفسها طريقًا إستراتيجيًا مختلفًا، ودخلت في حالة حرب مع المعارضة السورية، وتعرضت لضربات جوية أمريكية- نرى أن الشعب أخذ يتعاطف مع جبهة النصرة ويميل إليها بشكل أكبر. وقد زادت الضغوطات وخاصة العسكرية منها على جبهة النصرة بسبب تعاطف الشعب معها.

ومما زاد من شعبية جبهة النصرة وتعاطف الناس معها أنها أكثر تنظيمًا وانضباطًا من مجموعات الجيش الحر التي تميل للغرب، وكون علاقاتها مع الشعب ناجحة جدًّا، ويكمن نجاحها في كونها اللاعب الأساسي ضد الهجمات على النظام، وفي انتصاراتها العسكرية ضده في العديد من الجبهات. ونرى أن المعارضة السورية بحاجة ماسة لجبهة النصرة، ولاسيّما أنها في حرب ضد النظام من جهة وضد داعش من جهة أخرى، وقد اعترف بهذا قياديون في المعارضة والجيش السوري الحر في أكثر من تصريح لهم. إن هذه المجموعة الفعالة في الجنوب والشمال في آن واحد، تجبر الفصائل كافة في الجيش السوري الحر على التعاون معها؛ لكي تحافظ على توازن القوى مع النظام السوري.

وبعد تصريح المسؤولين الأمريكيين ببيانات مفادها أن المعارضة السورية لا يمكن أن تتغلب على الأسد، وتلاشي الآمال بالمعارضة، وتقليل الدعم المقدّم لها- لم يبق لدى المعارضين السوريين سوى خيار واحد هو المجموعات الجهادية الإسلامية. إذ لن يكون بالإمكان استمرار المقاومة في ظل وجود الأسد وتنظيم داعش في آن واحد إلا من هذا السبيل، وفي النتيجة اتجهت المعارضة إلى القوى الموجودة على الأرض، والتي تعمل بشكل فعال ضد نظام الأسد بدلًا من المجتمع الدولي الذي لم يستطع فعل أي شيء، ولم يدعم المعارضة ضد نظام الأسد. إن النقطة التي يجب علينا أن نوضحها تمامًا هنا هي وضع أو موقف المجموعات الجهادية الإسلامية في سوريا. حيث إن هذه المجموعات هي مجموعات محلية، وامتلاكها للمكانة القوية بين المعارضة السورية موضوع أهمله الجميع. إن طريقة القوة اللينة التي تستخدمها هذه المجموعات أكسبتها قوة ومكانة بين قوى المعارضة، وبين الشعب

أيضًا. وإن أي عمل مضاد لهذه المجموعات بدأ يثير سخط تنظيمات المعارضة والشعب السوري.

وفي هذا السياق يمكن أن نرى أن محاولات فصل جبهة النصرة عن المعارضة السورية أمر غير مجد، ومضرّ في الوقت نفسه. وقد شهدنا إلى الآن كيف أن المجموعات ذات الدعم الغربي لا يمكنها التماسك حيال المصاعب التي تواجهها، وخصوصًا في الأمثلة الأخيرة التي شهدناها. وقد جُرّت هذه المجموعات إلى حروب مع جبهة النصرة وحلفائها خلال فترات قصيرة، وفقدت تأثيرها خلال مدة قصيرة جدًّا بعد دخولها في هذه المعارك. ويجب علينا أن نضع في عين الاعتبار أن هذه المجموعات على عكس تنظيم داعش ستتمكن من زيادة تأثيرها في الشعب وقوى المعارضة، وأن وجودها سيكون طويلًا في هذا البلد لذا يجب في هذا السياق اتخاذ طرق أكثر عقلانية تجاه هذه المجموعات.

3 - المحاور المتصارعة في سورية

إن الموقف الدولي من الأزمة السورية يمتلك أهمية مصيرية؛ بسبب اكتساب هذه الأزمة بعدًا عالميًّا بسرعة كبيرة، وتحول الحرب إلى حرب بالوكالة. إن الأزمة السورية أظهرت بشكل واضح بعد فترة قصيرة من اندلاع المظاهرات في درعا أنه لا يمكن حلها على أيدي أطراف سورية فقط، وأنها أزمة واسعة الديناميكية والحركية، وستشغل المنطقة بأسرها. وإن التطور البارز واللافت للانتباه في هذه النقطة هو تدخل إيران أولًا عن طريق إرسال مستشارين لها لمساعدة النظام، وإدارة إخماده المظاهرات، وثانيًا عن طريق إرسال قوى عسكرية إيرانية ومجموعات وميليشيات مسلحة تابعة لإيران لتحل محل قوى النظام السوري الأمنية.

أما بالنسبة للدول الداعمة للمعارضة فقد أرسلت الأسلحة والدعم المالي بشكل متقطع للمعارضة بمختلف فصائلها، ولكنها على العكس من إيران ابتعدت وتجنبت إرسال جنودها بشكل مباشر إلى سوريا. وقد أدّت روسيا والولايات المتحدة الأمريكية دورًا مهمًا في نقل الأزمة السورية إلى بعد عالمي بعد أن تدخلتا بما يخدم مصالحهما الإستراتيجية. ولا شك أن مستوى تدخل الدولتين في سورية كان مختلفًا، وأن هذا الفرق والاختلاف في مستوى التدخل بدا جليًّا في التفوق العسكري لنظام الأسد على الساحة. وأن الفرق الأهم بين الدولتين يكمن في عدم تغير سياسة روسيا في سوريا، بينما تغيّر مسار سياسة الولايات المتحدة تمامًا في سورية.

إن الأزمة السورية أظهرت بشكل واضح بعد فترة قصيرة من اندلاع المظاهرات في درعا أنه لا يمكن حلها على أيدي أطراف سورية فقط، وأنها أزمة واسعة الديناميكية والحركية، وستشغل المنطقة بأسرها

بعد مرور أربع سنوات على الأزمة السورية يمكننا أن نصنف مواقف الدول التي لها مصلحة سياسية واضحة في سورية في ثلاثة محاور، وقد عملت الدول التي تقع في نفس المحور على إنتاج إستراتيجيات مشتركة وفي بعض الأحيان نفذت أعمالًا ذات هدف مشترك على الرغم من عدم ارتباطها بعلاقات

مباشرة مع بعضها. والحقيقة أن المحاور الثلاثة التي سيتم توضيحها في الأسفل تمتلك ماهيات تتخطى الحدود السورية.

إن الدول التي تأخذ مكانًا لها في هذه المحاور دول تمتلك مواقف متشابهة من الأوضاع في الشرق الأوسط، وإن سورية هي جزء واحد فقط من هذه الرؤية، ومع الأسف الشديد هي منفية من التحالفات الموجودة تمامًا. وإن المحاور الثلاثة التي تمتلك آثارًا إقليمية متبلورة في سورية هي: محور "إسرائيل- الولايات المتحدة- الأردن"، ومحور "تركيا- قطر- فرنسا"، ومحور "إيران- حزب الله- روسيا".

إن محور "إسرائيل- الولايات المتحدة- الأردن" يمتلك أكثر المجموعات الفرعية تنوعًا، وهو أكثر المحاور انتشارًا على الصعيد الجغرافي. يضم هذا المحور إضافة إلى الولايات المتحدة وإسرائيل كلًّا من الأردن والإمارات العربية المتحدة. أما المملكة العربية السعودية فهي تمتلك موقف تراجع عن هذا المحور من خلال موقفها المستقل والمتعدد الأبعاد مع صعود الملك سلمان بن عبد العزيز إلى سدة الملك، وسيطرة الحوثيين على العاصمة اليمنية صنعاء. ولأن المملكة السعودية تواجه مخاطر من وجودها ضمن هذا المحور والتحرك معه في الوقت الراهن، فإنه علينا أن نقيّم وضعها ضمن قوسين.

إن الميزة التي يمتلكها محور "إسرائيل- الولايات المتحدة" في سوريا هي أنه يرى نفسه بين خيارين: إما الأسد، وإما الإسلاميون، وأن أكثر أطراف هذا المحور لا يتردد في التصريح بهذا أمام الكاميرات،

إن الميزة التي يمتلكها محور "إسرائيل- الولايات المتحدة" في سوريا هي أنه يرى نفسه بين خيارين: إما الأسد، وإما الإسلاميون، وأن أكثر أطراف هذا المحور لا يتردد في التصريح بهذا أمام الكاميرات، ويطرح فكرة مرحلة انتقالية يكون نظام الأسد موجوداً فيها

ويطرح فكرة مرحلة انتقالية يكون نظام الأسد موجودًا فيها.

و بتعبير آخر إن دول هذا المحور تخاف من تولي الإسلاميين زمام السلطة في سورية بعد سقوط نظام الأسد، ولاسيّما أنها ترى أن آثار عام واحد فقط من حكم الإخوان المسلمين في مصر لم تنته بشكل كامل بعد. وأن هذا سيشكل خطرًا على مصالحها في المنطقة. ما يجب أن نفهمه هنا من عبارة الإسلاميين ليس تنظيم داعش أو جبهة النصرة ذات الروابط مع القاعدة.

و لأن هذه الدول كانت تتبنى نفس النظرة في بداية الأزمة السورية عندما لم يكن تنظيم داعش قد أسس بعد في سورية، وكانت جبهة النصرة مجموعة صغيرة في بنية الجيش السوري الحر. وبالانطلاق من هذه النقطة يمكننا القول إن هذه الدول التي تأخذ مكانًا متأصلًا بين القوى الفاعلة في الثورة السورية، كانت تقيّم المجموعات غير العلمانية على أنها مجموعات إسلامية (مع العلم أنها كانت مستحوذة على جزء كبير من ساحة الصراع)، فقد قامت بعرقلة مسار هذه المجموعات على الرغم من مكانتها لدى الشعب السوري، ومنعتها من المضي في القضاء على نظام الأسد.

و لهذا فقد تم اتباع مسارين أساسيين: الأول: تنحية هذه المجموعات عن مساعدات السلاح الدولية القليلة في الأصل؛ لمنع ازدياد قوتها العسكرية. ونتيجة لذلك تعرضت شحنات الأسلحة التي كانت تأتي من لبنان والأردن إلى جمود تام. ويمكننا القول إن الغرف العسكرية للجيش السوري الحر في المنطقة الجنوبية تتبع للولايات المتحدة والأردن؛ أي تحت سيطرتها، وتؤدّي المملكة السعودية دورًا مؤثرًا في بعض الأحيان. المسار الثاني: تم دعم القوى العسكرية المعارضة التي توصف بأنها علمانية موالية للغرب، كجبهة ثوار سورية وحركة حزم، وزيادة قوتها من أجل إنهاء المجموعات الإسلامية. أدى هذا الوضع إلى نشوء صراعات ومعارك بين القوى المعارضة للنظام، وأصبحت القوى المعارضة المدعومة من الغرب والمعروفة بعدائها ورفضها للإسلاميين وجهًا لوجه في حالة حرب مع المجموعات الإسلامية. ومن الغريب واللافت للنظر كون هذه المجموعات المدعومة من الغرب قد خسرت حربها مع المجموعات الإسلامية بشكل سريع، وتمت تصفيتها، حتى إن بعضها اضطر إلى حل نفسها، بل الانضمام إلى المجموعات الإسلامية.

و بعد تبسيط أو تخفيض الأزمة السورية إلى درجة وجود خيارين إما الأسد أو المجموعات الإسلامية اكتسب رأي محور "إسرائيل- الولايات المتحدة" ثقلًا كبيرًا، حيث بدأنا نرى طرح مرحلة انتقالية يكون نظام الأسد جزءًا منها. وعلى الرغم من ظهور تصريحات وبيانات تذكر أن الأسد فقد شرعيته، وأن لا مكان له في سورية المستقبل، إلا أن ترك التسامح أو مسألة

السماح للحل الدبلوماسي بيد روسيا ودعم النظام عسكريًّا بالأشكال كافة، وعدم تقديم أي دعم للمعارضة يمكّنها من إرغام نظام الأسد على الجلوس إلى طاولة الحوار- يؤدي إلى إجبار هذا المحور نفسَه على خيار نظام الأسد، أي أنه يقوم بتصديق كهانته الذاتية.

وفي هذه النقطة نرى أن أكثر المسائل التي تعقّد الأزمة السورية هو زيادة تأثير إيران في سورية. وعلى الرغم من ضعف قوة الأسد بعد مرور أربع سنوات على بداية الأزمة السورية ولم يكن إرضاء الإدارة الأمريكية وعلى رأسها الرئيس أوباما بمرحلة انتقالية يكون نظام الأسد جزءًا منها- أمرًا غريبًا، ولاسيما أنه يسعى للتقرب من إيران في مسألة المفاوضات على المسألة النووية مع زيادة التأثير الإيراني في سورية.

وكما هو منتظر أتى الرد الرافض الأكبر على زيادة تأثير إيران في سورية من إسرائيل ودول الخليج العربي. ولكن الموقف الثابت الذي أبداه أوباما من المفاوضات النووية الإيرانية، والحزم الذي أبداه في مسألة التقارب مع إيران- أدّيا إلى تجاهل العامل الإيراني في حسابات المسألة السورية إلى الآن.

وقد استخدمت إيران المفاوضات النووية هذه حجابًا أمام انتشارها العسكري في سورية والعراق، واستفادت من مرحلة التنازلات هذه إلى أقصى الحدود. وبالطبع كان هناك سببان آخران أمام تجاهل إيران على الرغم من رفض إسرائيل والخليج لهذا الوضع: السبب الأول: مشاركة الإسلاميين في الحرب السورية، أي بتعبير أوضح: النظر بعين الراحة لحرب إيران مع الإسلاميين، أما السبب الثاني إقحام النظام السوري وإيران أنفسهما في الحرب التي بدأها التحالف الدولي ضد تنظيم داعش الذي امتد بشكل كبير في العراق وسورية.

لكن حرب الميليشيات الإيرانية المتحركة في العراق ضد داعش لا يعني أن إيران ونظام الأسد يحاربان داعش في سورية، أو أنهما جزء مشارك في ذلك؛ بل على العكس فإن النظام السوري يمتلك علاقات تجارية مع داعش، ومن ناحية أخرى يستفيد من ضربها للمعارضة السورية، ومما يزيد من امتنان الأسد استهداف داعش من قبل المجتمع الدولي في سورية بدلًا من أن يقوم باستهداف النظام السوري. ونرى أن تنظيم داعش يمتلك أهمية لنظام الأسد على الأقل إلى أن يقل تأثير المعارضة فيه. وإن تجاهل أو سماح محور "إسرائيل- الولايات المتحدة- الأردن" لإيران بالانتشار في سوريا لمحاربة داعش يظهر لنا أهمية ورقة داعش للنظام السوري.

محور تركيا- قطر: قدم للثورة السورية بموقفه الإقليمي دعمًا متناسقًا وغير منقطع. ولكن تعدد الأبعاد والقوى العالمية تسبب في عدم اكتساب هذا الدعم ماهية تمكّنه من إنهاء الصراع. وكانت فرنسا أيضًا من القوى التي عملت لصالح الثورة السورية، على عكس باقي القوى العالمية، وتحركت مع محور تركيا وقطر في بعض الأحيان. كما كانت تركيا وقطر قد عملتا على بناء علاقات جيدة مع الحكومات التي تسلمت السلطة إثر سقوط الأنظمة نتيجة تيار الربيع العربي. وقد أدى هذا الموقف إلى عدم ارتياح القوى الفاعلة في الشرق الأوسط، وأصبحتا هدفًا للقوى

الإقليمية ذاتها، مع بدء تيارات الثورات المضادة. وقد انتُقِدت الدولتان بسبب العلاقات الجيدة التي بنتاها مع حكومة الإخوان المسلمين، ونُظِر إليهما على أنهما إحدى أطراف دول الاستقطاب في المنطقة من قبل القوى الراهنة فيها، بسبب وصول أحزاب ذات علاقة جيدة مع الإخوان المسلمين. كما كانت الدولتان تعملان على إيجاد حل دبلوماسي للأزمة السورية منذ بداياتها، ولكن وبعد التحولات التي طرأت على الثورة السورية بدأتا تقدمان الدعم بشكل تدريجي للمعارضة السورية. ومما يميز موقف دول هذا المحور عدّها الأسد فاقدًا لشرعيته؛ بسبب المذابح التي قام بها تجاه شعبه، وأن أي حل في سوريا يجب أن يكون بدون الأسد.

و لهذا السبب فهاتان الدولتان قريبتان من مواقف الأغلبية الساحقة للمعارضة السورية العسكرية والسياسية. وتطالبان بنظام انتقالي يؤمّن إجراء انتخابات عادلة في سورية، ويضم بداخله الأطياف كافة. ومن هذا المنطلق نرى أن تركيا تستضيف المعارضة السياسية السورية لديها، ولها علاقات واضحة مع العديد من أذرع المعارضة، وتستضيف حوالي مليونَي لاجئ سوري في تركيا، وهذا يجعلها من أكثر القوى الإقليمية تأثرًا بالأزمة السورية.

لا يعدّ عامل الخوف من الإسلاميين الذي تدعيه كل من الولايات المتحدة وإسرائيل عاملًا مؤثرًا في سياسة قطر وتركيا المتبعة تجاه الأزمة السورية. بل على العكس فإن هاتين الدولتين اللتين تشكلان عنصرين أساسيين من عناصر مجموعة دول أصدقاء الشعب السوري تريان أن المجموعات التي توصف من قبل الولايات المتحدة وإسرائيل بأنها مجموعات إسلامية، مثل أحرار الشام وجيش الإسلام- هي من الأجزاء المتأصلة في الثورة الشعبية التي قامت في سوريا. ويمكننا القول إن فرنسا تتبع سياسة أكثر شمولًا من باقي الدول الأوروبية، ولو أن موقفها لم تبلغ مبلغ موقفَي قطر وتركيا.

تطالب تركيا بشكل مستمر بأنه يجب على المجتمع الدولي حماية المجموعات التي تقاوم نظام الأسد ودعمها، والتي تكون جزءًا من الجيش السوري الحر الذي أنشأه الشعب السوري عدا داعش وجبهة النصرة الموجودتين ضمن لائحة الإرهاب. وشجعت على تحرك هذه المجموعات المشتتة بشكل متزامن ومنسق مع بعضها. وتطالب أيضًا بوجوب تحسين الأوضاع على الساحة من أجل إجبار النظام السوري على الجلوس على طاولة الحوار. ونرى أن مواقف أو مطالب كل من قطر وتركيا وفرنسا تتقاطع في نقطة موحدة في مسألة إقامة منطقة حظر جوي، ومنطقة عازلة في الشمال السوري. ولكن هذا التوافق كما قلنا في البداية لم يُجدِ في وضع إستراتيجيات تؤثر بشكل مباشر في الوضع السوري.

أما دول محور "إيران- روسيا- حزب الله" فقد تدخلت في سورية منذ بداية المظاهرات السلمية، بأبعاد ومستويات مختلفة، ووقفت إلى جانب نظام الأسد بشكل كبير جدًّا. وقد قدمت حلولًا سياسية لنظام الأسد؛ لتساعده في الحفاظ على السلطة، وضمانها طوال فترة الأزمة. ولكنها استمرّت في دعم النظام السوري عسكريًّا دونما أي

انقطاع؛ لتقوية موقفه في المساومات المختلفة. ويمكن أن نقيّم كلًّا من حزب الله وإيران في كفة وروسيا في كفة أخرى، من حيث العقلية التي استخدماها في دعم النظام السوري. بعد أن دعمت روسيا الحملة العالمية على ليبيا، وبقيت خارج المعادلة في نهاية المطاف، وضعت ثقلها في سورية، وعملت بشكل مكثف على أن تعيد وجودها في الشرق الأوسط من خلال الأزمة السورية. وكما هو معروف فإن روسيا تمتلك وجودًا عسكريًّا في سوريا، كما هو الحال في القاعدة العسكرية الروسية في طرطوس، ولذلك تعمل على الحفاظ على النظام السوري؛ لكي لا تخسر هذا الوجود، ولا تفقد بوابتها على البحر الأبيض المتوسط.

شكلت روسيا منذ بداية الأزمة دِرعًا دبلوماسيًّا لنظام الأسد في الأمم المتحدة من خلال حق الفيتو، وأعاقت اتخاذ مجلس الأمن قرارات ضد النظام السوري. ومع التردد الكبير للإدارة الأمريكية في المسألة السورية وعدم اتخاذها مواقف مبدئية واضحة من الأزمة وثبات وجدية روسيا في دعمها المتواصل للأسد- أصبحت روسيا من أكبر القوى الفاعلة في الأزمة السورية. وبالإضافة إلى الدرع الدبلوماسي الروسي لنظام الأسد، استمرت روسيا في شحن الأسلحة للنظام السوري، ونفذت العقد المبرَم معه الذي ينص على بيعه صواريخ من طراز S-300.

كما أدّت روسيا دورًا محوريًّا في عقد اجتماعات جنيف، وقد حققت مكسبين من تلك الاجتماعات: أولها تأكيد عدم إمكانية تحقيق حل من دون وجود الأسد، واستطاعت -بالاستفادة من عدم وجود

نظرة محددة للمجتمع الدولي حول الأزمة السورية- أن تنهي نقاشات الحل السياسي في سورية. ومع وجود إيران وحزب الله في هذا المحور إلا أنهما لم يتحاورا مع روسيا، بينما قامت المعارضة السورية بشكل معاكس بالحوار معها، ولكن تأكيد روسيا عدم رحيل الأسد أوصل المفاوضات إلى مسار مسدود.

وبعد أن أثر انخفاض أسعار البترول في روسيا بشكل سلبي، وانشغالها بالمسألة الأوكرانية بشكل كبير لم تعد تجد الوقت الكافي للمسألة السورية، بل أصبحت عبئًا يؤرقها بالفعل، فبدأت باتخاذ مواقف هادفة للتخلص من هذا العبء، إلا أن هذا كان غير مجد في تغيير الوضع في سورية؛ بسبب ما ذكرناه في الأعلى. وإن الفارق الأهم الذي يفصل روسيا عن باقي أعضاء المحور هو تراخيها وانفتاحها في مسألة بقاء عائلة الأسد في الحكم في سوريا، وتلويحها بإمكانيتها في دعم بدائل في سوريا، وإمكانية تخلصها من الدهليز السوري من خلال خطوات دبلوماسية تخطوها. وفي النهاية أجبرت روسيا جميع القوى -وعلى رأسها الولايات المتحدة- على الاعتراف بوجودها قوةً فاعلة في المنطقة، وأجبرتها على طرق بابها للحصول على حل للأزمة السورية. وعلى العكس من روسيا فقد قامت إيران وحليفها أو تابعها حزب الله بدعم نظام الأسد عسكريًّا وإعلاميًّا بشكل كبير جدًّا. وقد عملت إيران التي عُرفت بقمعها لمظاهرات الحركة الخضراء السلمية على إرسال مستشاريها في قمع المظاهرات إلى سوريا لإنهاء الحراك السلمي الاحتجاجي فيها. ولم تكتف إيران بهذا بل عملت في المراحل اللاحقة على إرسال

أجبرت روسيا جميع القوى -وعلى رأسها الولايات المتحدة- على الاعتراف بوجودها قوةً فاعلة في المنطقة، وأجبرتها على طرق بابها للحصول على حل للأزمة السورية

ضباطها بشكل فعلي إلى سوريا؛ ليكونوا على رأس وحداتها العسكرية، بالإضافة إلى تجميع الميليشيات الشيعية من مختلف الأماكن التي يوجد فيها الشيعة، ووقوفها في الجبهات جنبًا إلى جنب مع النظام السوري. وبتعبير آخر فإن الجيش الإيراني يؤدّي دورًا محوريًّا مماثلًا لدور جيش الأسد في الساحة العسكرية. وإن الوجود الإيراني في سوريا يجعل خيار التدخل العسكري العالمي ضدها أمرًا بلا معنى. ولم يتم طرح فكرة التدخل العملي العسكري ضد ما يقترفه النظام السوري من جرائم حرب ضد المدنيين في سوريا. ولكن وعلى الرغم من تخطي جميع الخطوط الحمراء لم يتم إيجاد توافق دولي على التدخل العسكري في سوريا. في حين أن حكام إيران وأتباعهم يقومون بحرب مفتوحة في سوريا، تعدّ بلا أي شك تدخلًا خارجيًّا فيه اعتداء على الشعب السوري. ومن هذه الناحية فإن التدخل الإيراني في سوريا الذي كان موجودًا من قبل أصبح رسميًّا في صيف عام 2011. وقد أسهمت مواقف وأعمال المحاور التي ذكرناها في الأعلى والتدخل العسكري الذي قام به المحور الروسي الإيراني وحزب الله في جرّ الأزمة السورية إلى الوضع الحالي. ويمكن أن نقيّم مقاومة وصمود المعارضة السورية التي تتشكل من أشخاص لم يكونوا

قد حملوا سلاحًا من قبل الأزمة لمدة أربع سنوات في مواجهة النظام الذي يتلقى دعمًا كبيرًا من روسيا وإيران وحزب الله- بأنه تفوق أو عامل إيجابي بالنسبة للمعارضة.

ويجب أن نفتح مجالًا خاصًّا للمملكة العربية السعودية خارج المحاور الثلاثة التي شرحناها في الأعلى؛ لأن المملكة عملت على التقرب من محور الولايات المتحدة- إسرائيل- الأردن نتيجة خوفها من الإسلاميين، ومن ناحية أخرى كانت تتقرب أو تميل للمحور القطري التركي، ولاسيّما أن السعودية معروفة بدعمها لزهران علوش قائد جيش الإسلام المعروف بميوله السلفية في ضواحي دمشق، وفي الوقت نفسه عملت على ممارسة أكبر الضغوط على المجموعة من أجل جعلها تتحرك بشكل منفصل عن الجبهة الإسلامية. وقد قامت الأوساط الاستخباراتية والسياسية في السعودية بتسيير علاقات مع مجموعات مختلفة من المعارضة السورية، وقد أثرت الاختلافات في هذه العلاقات في سياسة المملكة تجاه الأزمة السورية. وكان الدور الإيراني في سوريا عاملًا اشمأزت منه المملكة السعودية، ولاسيّما أن هذا الانتشار الإيراني وصل إلى جوارها في اليمن، وبدأ ينتشر في أغلب مناطق الشرق الأوسط، هذا ما أدى إلى إعادة نظرها في الأزمة السورية. وقد زاد انتظار التغير في السياسة السعودية تجاه سورية بعد تغير الملك؛ أي بمجيء الملك سلمان. ومع تنحية بندر بن سلطان عن مركز رئاسة الاستخبارات، وتعيين محمد بن نايف مسؤولًا عن الملف السوري- مرت المملكة بمرحلة انعطاف بما يخص المسألة السورية،

تسببت المسألة السورية في قلق وتعب جدّيين ليس للديناميكيات الداخلية فيها فقط؛ بل لمنطقة الشرق الأوسط بأسرها؛ وكانت الأزمة السورية سببًا في ظهور القوى الإقليمية في سوريا منذ بداية المظاهرات

ومن المنتظر أن يزداد ظهور محمد بن نايف في المسألة السورية، في الأيام القادمة، وهذا الوضع يمتلك احتمالًا قويًّا بفوائد تكتسبها المعارضة السورية.

4 - سورية... الأزمة التي تعدت المنطقة:

تسببت المسألة السورية في قلق وتعب جدّيين ليس للديناميكيات الداخلية فيها فقط؛ بل لمنطقة الشرق الأوسط بأسرها؛ وكانت الأزمة السورية سببًا في ظهور القوى الإقليمية في سوريا منذ بداية المظاهرات، وأدّى استخدام نظام الأسد للقوة المسلحة وإصراره على ذلك إلى اختلاف المواقف، وفي المراحل اللاحقة إلى القطبية في المنطقة.

وكانت السياسات العالمية والنظام العالمي والسياسات القوية ذات أثر كبير في سوريا، ومحددًا لمسارات الأزمة. وتزامن الحديث عن تطور الأزمة السورية مع أحاديث تراجع الولايات المتحدة، وأصبحت المسألة السورية عنوانًا مهمًّا في نقاشات دور الولايات المتحدة في النظام العالمي ومستقبل النظام العالمي.

مثلًا بدأت سياسات الولايات المتحدة الخارجية وأهدافها تقرأ من خلال المسألة السورية، وقد عُدّت السياساتُ الخارجية

التي تتبعها الولايات المتحدة ضمن هذه الأزمة، كما عُدّت أولوياتُ الأمن القومي عرضًا موجزًا عما سيتم اتباعه من قبلها في المراحل القادمة من سياسات. وقد أخذت المسألة السورية مكانها بين نقاشات العديد من الأنظمة ومسؤوليات القوى الكبرى والمساعدات الإنسانية ومستقبل الشرق الأوسط. ومن ثَمّ فإن الأزمة السورية أصبحت ذات تأثير كبير ومحدد لمسار السياسات في العالم كله، لا في المنطقة فقط.

ولا بد أن أكبر التأثيرات في السياسة الخارجية الناتجة عن الأزمة السورية كان التأثير في السياسة الخارجية ما بين سوريا وتركيا، حيث كانت العلاقات قد بدأت بالتحسن مرة أخرى بعد أن وصلت إلى حد كبير من التوتر في مسألة عبد الله أوجلان في التسعينات، واستمرت العلاقات في التطور ما بعد سنة الألفين، ووصلت إلى حد الشراكة، ولم تكن العلاقات التي قامت بها تركيا مع سوريا مهمة بالنسبة لتركيا فقط من أجل سوريا، ولكن كان الهدف أن تكون سورية بوابة للانفتاح على الشرق الأوسط بأسره. وفي الوقت نفسه كانت العلاقات التي قامت بها سوريا مع تركيا تهدف إلى التخلص من العزل السياسي الذي فرضته سياسات جورج دبليو بوش، وهدفت إلى أخذ مكان ضمن النظام العالمي. ولهذا السبب كانت الدولتان قد اهتمتا بتطوير العلاقات بينهما. والبعد الآخر للعلاقات ما بين سوريا وتركيا هو الرؤية الخارجية التركية في الشرق الأوسط . كانت تركيا تهدف من توسيع هذه العلاقات الإيجابية مع دول الشرق الأوسط إلى حل خلافاتها مع هذه الدول، وحل خلافات هذه الدول مع بعضها، بهدف حل مشكلات منطقة الشرق الأوسط. ومن ناحية أخرى كانت تقوم بالوساطة بين القوى العراقية المختلفة، وفي الوقت نفسه تعمل على تقديم مبادرات من أجل حل المشكلات والخلافات بين سوريا وإسرائيل. ولا بد أن البعد الاقتصادي كان يحمل ثقله في الإستراتيجية التي اتبعت في سورية. كانت تركيا تعمل من خلال رؤيتها تجاه المنطقة على الدمج بين اقتصادات الدول في المنطقة واقتصادها، وتهدف بذلك إلى حصر المشكلات في السياسات الخارجية من خلال التعاون الاقتصادي بين هذه الدول. وكانت هذه الإستراتيجيات الاقتصادية ستجلب معها تطورًا في العلاقات الاجتماعية والسياسية لتظهر في النتيجة منطقة أكثر رفاهية واستقرارًا.

و لكن مع بداية ثورات الربيع العربي في دول شمال إفريقيا أضافت تركيا إلى هذه الإستراتيجيات مطالبة الدول بتحقيق التغييرات والإصلاحات لتكون بذلك قد لبت مطالب الشعوب، وقد كانت الحكومة التركية تتابع الأحداث عن قرب، واتخذت منهجًا يتمثل في هذا القول: "سنكون في طرف الصحيح تاريخيًّا"، أي أنها اختارت طرف الشعوب، وبدأت بتوجيه نداءات جدية للإدارات السياسية تطالبها فيها بإجراء الإصلاحات اللازمة. وقد اتبعت أنقرة توجهًا سياسيًّا تجاه النظام السوري الذي بدأ يستخدم القوة المفرطة تجاه المتظاهرين لقمعهم، وقد دعتها أنقرة طوال الأشهر الأولى إلى إيجاد حل سياسي إلى درجة أنها

وضعت العلاقات التي كانت تطوّرها منذ أربع سنوات في خطر.

و قد أعطت تركيا الأحقية التامة لشعوب المنطقة في مظاهراتها، وعملت على البدء في عملية انتقال محكمة في سوريا. واستمرت الضغوط التركية على نظام الأسد بشكل مستمر في أشهر الصيف في عام 2011، ولكن التأثير الزائد لإيران في سوريا، وسدّ النظام السوري سبل الحلول الدبلوماسية كافة، وزيادة أعداد الضحايا من المدنيين في سوريا نتيجة أعمال النظام السوري- وضع تركيا في موقف يجبرها على اختيار صفها في هذه المسألة. ومع ازدياد الهجمات في شهر رمضان قام النظام السوري بمعاداة دولة تزداد أهميتها باستمرار في الشرق الأوسط. وبعد أن تبين للحكومة التركية أن الأسد لا يفكر في الإصلاحات أبدًا قررت إنهاء الاستثمارات السياسية التي قامت بها على مر عشر سنوات، واتخذت موقف مواجهة الأسد.

وفي هذه المرحلة عملت سوريا على تطبيق الإستراتيجيات التي استوردتها من إيران في قمع المظاهرات والاحتجاجات بالقوة. وعمل النظام السوري على إكساب المسألة البعد المذهبي بسبب أفعاله وحفز المتظاهرين كي يقوموا بأعمال العنف، وقامت تنظيمات الاستخبارات بكل ما في وسعها لتحقيق ذلك. ورأى النظام السوري أن الجو الإيجابي الذي نشره الربيع العربي لا يمكن أن يُجعَل سلبيًّا إلا بهذه الطريقة.

و بقدر ما كان تأثير الموقف السوري سلبيًّا في إستراتيجيات تركيا السياسية في الشرق الأوسط فقد أثر أيضًا في سياسات القوى العالمية بقدر لا يستهان به. وأصبحت المسألة السورية ذات تأثير كبير من ناحية سياسات الولايات المتحدة في الشرق الأوسط وكانت الإدارة الأمريكية بدأت بعد ترأس أوباما تهدف إلى وضع منهج جديد لسياساتها المتعلقة بالشرق الأوسط، وقد منحت المسألة السورية اهتمامًا خاصًّا. وكانت ترى أن الحدود مع العراق ستكون آمنة في حال تحسين العلاقات مع سوريا، وأن ذلك سيقي من دخول المقاتلين الأجانب إلى العراق، ويسهل مهمة الانسحاب من العراق. وفي الوقت نفسه كان انسحاب سورية من محور إيران سيشكل سهولة وفوقية للإدارة الأمريكية خلال المفاوضات النووية مع إيران.

وفي النهاية فإن سوريا تمتلك أهمية كبيرة من حيث كونها العنصر الأهم الذي يمكن أن يسهم في السلام الإسرائيلي الفلسطيني، ولاسيما أن هذا الموضوع هو ما سعى إليه العديد من رؤساء الولايات المتحدة بشكل مستمر. وكانت الإدارة الأمريكية ترى أن سلامًا ما بين إسرائيل وسوريا ستكون له نتائج إيجابية جدًّا على السلم بين إسرائيل وفلسطين. وكانت الإدارة تهدف إلى إحراز تقدم جدي في مشكلات الشرق الأوسط، ونقل اهتمامها على المدى البعيد إلى آسيا والباسيفيك، ولهذا كانت المسألة السورية تحمل أهمية كبيرة بالنسبة لها. وكانت تركيزات السياسة الخارجية الأمريكية والنظام العالمي ستتغير بنسبة كبيرة في حال نجاح هذه الإستراتيجية. وبعد أن وضعت الإدارة الأمريكية هذه الأهداف ضمن برامج أعمالها عملت بعد تولي الرئيس أوباما

مهامه على إعادة بناء العلاقات مع سوريا، مع العلم أن العلاقات الأمريكية السورية كانت قد تراجعت كثيرًا إلى حد سحب الولايات المتحدة سفيرها من دمشق إثر اغتيال الحريري. وقد عمل أوباما على إلغاء بعض قرارات الحظر الاقتصادي عن سوريا، على الرغم من اعتراض مجلس الشيوخ، وقد استمرّ أوباما في تطوير الإجراءات التي قام بها إلى أن عّين سفيرًا للولايات المتحدة في دمشق ليعيد العلاقات من جديد معها. وهنا بدأت الولايات المتحدة بإجراء مفاوضات غير مباشرة من أجل حل الخلاف الإسرائيلي السوري على مرتفعات الجولان وعقد اتفاقية حولها، ولكن مع استمرار هذه المساعي الدبلوماسية كانت المظاهرات قد بدأت.

ظنت الإدارة الأمريكية خلال المظاهرات أن النظام السوري سيقوم بالإصلاح والتغيير على الصعيد السياسي، ومن هنا ظنت أن السياسات الخارجية الأمريكية ستستمر على ما هي عليه دونما أي تغير. ولكن مع استمرار المظاهرات واشتدادها خلال أشهر الصيف تعرضت الولايات المتحدة لخيبة أمل كبيرة لما يفعله نظام الأسد، على الرغم من أن استثماراتها السياسية لم تكن إلا بقدر يسير أمام ما قامت به تركيا من استثمارات. وقد وصلت الولايات المتحدة إلى فكرة تتمثل في أنه لا حل في سوريا من دون رحيل الأسد، وبدأت تنادي بذلك بشكل واضح وصريح. وقد أثّر هذا الوضع بلا شك في مخططات أوباما المتعلقة بسوريا خاصة والمنطقة بشكل عام.

إن التطورات التي كانت تحدث في سوريا بدأت تفسح المجال لتقوم بعض القوى العالمية

بدأت روسيا في دعم النظام السوري على الصعيد الدبلوماسي، إضافة إلى الصعيد العسكري. وقد نجحت من خلال استخدامها حق الفيتو في مجلس الأمن في منع وإعاقة اتخاذ أي قرار ضد نظام الأسد

مثل روسيا بدور أكثر فاعلية في المنطقة. وقد بدأت روسيا ترى سوريا موقعًا جغرافيًّا مناسبًا لتقوية نفسها على الصعيد الجغرافي السياسي، ولاسيما أن روسيا شعرت بالخطر بعد أن بقيت خارج نطاق القوى الفاعلة في أزمات مصر وتونس وخاصة ليبيا، وزيادة تأثير حلف الناتو في المنطقة، ورأت في سوريا أرضية مناسبة لمواجهة الغرب، وقد أمّن هذا الوضع مجالًا مهمًّا بالنسبة للرموز الجغرافية السياسية الذي كان من ناحية أخرى يمنح روسيا موقفا أكثر صلابة تجاه الغرب ويمنحها اعتبارًا خارجيًّا.

ومع طول فترة الصراع في سوريا بدأت روسيا في دعم النظام السوري على الصعيد الدبلوماسي، إضافة إلى الصعيد العسكري. وقد نجحت من خلال استخدامها حق الفيتو في مجلس الأمن في منع وإعاقة اتخاذ أي قرار ضد نظام الأسد.

و قد ظهرت روسيا على أنها داعم وراع سياسي لسوريا خلال مؤتمرات جنيف لاحقًا، وبعد ذلك كان الدور الأبرز الذي ظهرت فيه روسيا هو عقد اتفاق بين سوريا ودول العالم من أجل التخلص من الأسلحة الكيماوية. وعلى الرغم من تقدّم ذكر أسباب الدعم الروسي لنظام الأسد -كالقاعدة العسكرية في الميناء البحري بطرطوس،

وبيع الأسلحة- إلا أن حاجة روسيا لإثبات نفسها على المدى البعيد كان لها الثقل الأكبر فيما تفعله. وكانت الأزمة السورية عاملًا إيجابيًّا بالنسبة للإدارة الإيرانية أيضًا، فقد بدأت بحملتها الكبيرة من أجل أن تكون قوة فاعلة كبيرة في المنطقة، وأصبحت تمتلك تأثيرًا كبيرًا في سوريا من خلال قوات سرايا

إيران بعد أن عدّت نفسها قدوة في الحركات الثورية في المنطقة، ودعمت الحركات الثورية ضد الأنظمة تماشيًا مع كونها تُحكَم من قبل نظام أتى على إثر ثورة، اليوم وبعد مضي عشرات السنوات على ثورتها التي قامت عام 1979 نرى أنها تدعم الأنظمة في مواجهة الحركات الثورية

القدس بقيادة قاسم سليماني. زادت هذه المبادرات الإيرانية من تأثير إيران في نظام الأسد بشكل مباشر، وبعد النقطة الحالية التي تم الوصول إليها بدأ الجميع يقول إن سوريا أصبحت تابعة لإيران بشكل جدي، وإنها تحت سيطرة القوات أو الميليشيات المدربة في إيران. ولا بد أنه كان لتدخّل حزب الله وخاصة في المنطقة الجنوبية لصالح الأسد تأثير كبير في سير المعارك لصالح الأسد.

وعلى الرغم من أن الكثيرين بدأوا يقولون إن إيران تمتلك تأثيرًا خارجيًّا كبيرًا إلى هذا الحد لأول مرة، إلا أن هذا الوضع كان مكلفًا جدًّا لإيران ولحلفائها. والآن نرى أن إيران بعد أن عدّت نفسها قدوة في الحركات الثورية في المنطقة، ودعمت الحركات الثورية ضد الأنظمة تماشيًا مع كونها تُحكَم من قبل نظام أتى على إثر ثورة، لكنها اليوم وبعد مضي عشرات السنوات على ثورتها التي قامت عام 1979 نرى أنها تدعم الأنظمة في مواجهة الحركات الثورية. وبالإضافة إلى هذا قامت إيران بدعم الأسد وحزب الله في أعمالها الوحشية ضد المدنيين، وأصبحت شريكة لهم. ونرى أن حزب الله الذي اكتسب مكانة كبيرة في المنطقة بعد حرب 2006 قد فقد هذه المنزلة، وفقد مكانته في الرأي العام في المنطقة إثر دخوله هذه الحرب ضد الشعب السوري.

ولا بد أن هذا الوضع جلب متاعب لإيران وحزب الله في بلادهما إلا أنهما عملا على إخفاء هذا التأثير، وعلى الرغم من أن قاسم سليماني بدأ يقدم صور النصر للصحف السورية إلا أن الوضع الذي تسببت به إيران في سوريا والعراق جعلها تقع تحت ضغوطات كبيرة جدًّا، وقد وضعت الأسئلة التي وجهت لقائد حزب الله والتي تدور حول عمل وسبب تواجد مقاتليه في سوريا في وضع صعب جدًّا.

ومع وصول الأزمة إلى عامها الرابع نرى أن الوضع الحالي الموجود ينتج وضعًا جغرافيًّا سياسيًّا مبهمًا للغاية من أجل سوريا والمنطقة. وعلى الرغم من أن الكثير من القوى العالمية بقيت خلال السنوات الثلاث الأولى بعيدة عن الأزمة وجامدة تجاهها، إلا أنها أُجبرت على مواجهة الآثار السلبية الناتجة عن السياسات غير الصحيحة في سوريا. وقد اكتسبت الأزمة بعدًا أكثر اتساعًا بعد دخول داعش العراق، واندماج الأزمة في العراق وسورية. وأدى توصيف الرئيس الأمريكي باراك أوباما تنظيم داعش بأنه مجموعة

إرهابية مبتدئة، وتصريحه بعد سيطرة داعش على الموصل بأنه لا يمتلك أي سياسة لحرب داعش- نقاشات كبيرة جدًّا، وبدأت المسألة تنخفض إلى مستوى المقاتلين الأجانب فقط، وأهملت الأسباب التي أدت إلى هذا الوضع، وبعد مرور ثمانية أشهر على بدء الإستراتيجية الأمريكية الهادفة إلى كبح داعش وإنهاء التنظيم في شهر أيلول 2014 أصبحت الآن وضعًا متفقًا عليه إلى حد كبير. ولا يعرف بعد ما الآثار التي ستجلبها الممارسات التي تجري من أجل القضاء على داعش بالنسبة لمستقبل السنة في العراق والمعارضة في سورية؟ إضافة إلى ذلك لا يدعي أي من الخبراء الإستراتيجيين والمحللين أن تنظيم داعش يمكن القضاء عليه، ولا يظهر لنا أي عمل من التحالف العالمي يهدف إلى منع تقوية نظام الأسد من خلال الحرب ضد داعش وظهور اعتداءات انتقامية في العراق. ويبين لنا ظهور الأسد على الساحة ومطالبته أو عرضه العمل المشترك مع الغرب الوضع التراجيدي المضحك الذي وصلت إليه الأمور.

5. الخاتمة

ما نوع التطور الجديد الذي يمكن انتظاره في سوريا؟ أو ما الحملات التي يمكن أن تغير الوضع؟ ومن الذي سيقوم بها؟ وبأي الأشكال؟

أولًا بعد مرور أربع سنوات على اندلاع الثورة السورية بدأ الكل يرى بوضوح أن الوضع في سورية لا يمكن أن يعود كما كان عليه قبل الربيع العربي، بما في ذلك الرأي العام العالمي والقوى التي تدعم النظام السوري. وعلى الرغم من ذلك لاتزال الخطط التي تدعو إلى حل مع الأسد مبهمة الهدف والغاية. ولهذا السبب فإن ما بدأت روسيا برعايته في الآونة الأخيرة، وهو الدعوة للمفاوضات ليس إلا مضيعة للوقت؛ لأن الوضع الراهن في سورية وقوى المعارضة التي لا يمكنها التدخل عسكريًّا لحسم أمر ما لا يمكنها الجلوس مع الأسد على طاولة المفاوضات، ومن ثَمّ لن يكون هنالك أي تجاوب عالمي مع هذه المسألة التي لن تسفر عن أي نتيجة إيجابية. ولن يكون لها أي نتيجة سوى أنها ستمنح النظام السوري والقوى الداعمة له المزيد من الوقت. وبعد تنامي قوة قوى المعارضة السورية ولو بشكل جزئي في المنطقة وخاصة داعش، بدأ تجريمها بشكل قصدي نوعًا ما وإخراجها من المعادلة، والتذرع بعدم كفاءة المعارضة السورية من خلال ما قدمته إلى هذه اللحظة، وكان الهدف من كل هذا هو تحييد المعارضة السياسية. ولكن وعلى الرغم من جميع هذه المساعي فإن تجاهل التطورات والقوى الفاعلة الموجودة على الساحة سيؤدي إلى ولادة ميتة لحل ما يمكن أن يتحقق في المستقبل.

ثانيا: تجب مراجعة وضع المقاتلين الأجانب الذين يقاتلون إلى جانب صفوف المعارضة، والذين بدأوا يظهرون على الساحة بشكل أكبر بعد ظهور تنظيم داعش. وإن النقاشات التي تستمر حول داعش جعلت القوى المسلحة في سوريا تحت شكوك سيئة، وتعطي انطباعًا بأن جميع القوى التي تحارب ضد النظام ذات تبعية أجنبية. وهذا الوضع يؤدي بطبيعة الحال إلى الظن بأن الثورة السورية ذات مركز خارجي.

في هذه النقطة يجب علينا أن ندرس مسألة المقاتلين الأجانب وموقعهم لدى المعارضة السورية بشكل جيد، ولا بد من معرفة أن الموضوع الأكثر إهمالاً ويتم تجاهله في مسألة المقاتلين الأجانب- هو موضوع المقاتلين الذين يقفون إلى جانب الأسد بشكل جدّي وعلى الأرض. ومن ناحية أخرى يجب أن نعلم أن قضية سرايا القدس بقيادة قاسم سليماني والعناصر الذين تجمعهم هذه السرايا وتدربهم وتقحمهم في الحرب بشكل فعلي في سورية، ومسألة العناصر الذين يدربهم حزب الله، والجنود الذين يدخلهم في الحرب بشكل فعلي أيضًا- تشكلان البعد الحقيقي والأكبر للمقاتلين الأجانب في سورية، ولا بد أن تقديم إيران ضباطها الرسميين لإدارة المعارك في سوريا ومقتل بعضهم يوضح لنا الدعم الرسمي الذي تقدمه إيران للنظام السوري.

بالإضافة إلى هذا فإن مشاركة حزب الله في حصار القصير، والأعمال التي يقوم بها مع النظام السوري ترينا أنه يجب أن نذكر مسألة المقاتلين الأجانب الذين يستخدمهم النظام في صفه بشكل أكبر، ولهذا فإن النقاشات والمساعي التي تهدف إلى حل مسألة المقاتلين الأجانب يجب أن تركز بشكل أكبر على المقاتليين الطائفيين الذين يقفون مع الأسد في حربه بشكل فعلي ومنتظم.

وإن أبرز الأحداث والتطورات التي يمكن أن تؤثر في الأزمة سياسيًّا وعسكريًّا هو وفاة الملك عبد الله بن عبد العزيز وتولي سلمان بن عبد العزيز مهام الملك في المملكة العربية السعودية، ولا شك أن التواصل الدبلوماسي الكثيف بين تركيا والسعودية إثر هذا التغيير يمكن أن يؤثر في وضع الساحة السورية. وعلى الرغم من أن اختلاف الرأي والسياسات بين الدولتين فيما يتعلق بمصر كان له تأثير إلى الآن، إلا أنه يمكن أن نرى أن بإمكان هاتين الدولتين ضم الدول الأخرى أيضًا إلى صفهما لتقوم بتطوير الإستراتيجيات وتطبيقها لتغيير اللعبة في سورية. إن العمل المشترك هذا سيسهم في التأثير في الوضع القائم في سورية حاليًّا من جهة، وسيعمل من جهة أخرى على الإسهام في القضاء على داعش في المنطقة. وإن منهجًا كهذا يمكنه أن يجعل القوى العالمية والرأي العام العالمي تنفتح أكثر من حيث المواقف التي تبديها.